وادى الفرات

أو دير الزور

لحضرة العلامة العراقى

الشيخ محمد سعيد العرفى

كم كنا أثناء تجاذب أحاديث الوداد مع الأخوان ، نراهم لا يدرون عن هذه البلاد شيئا إلا كما يدرون عن الربع الخراب أو نحو ذلك ، حتى إذا كان مساء الخميس ١٩ ذى الحجة سنة ١٣٤٩ ، جمعتنى دار العروبة على شاطىء النيل ، مع العلامة الأكبر ، والجهبذ الجليل ، السيد محمد زبارة الحسنى الصنعانى ، أمير القصر السعيد ، لدى حكومة اليمن الأسلامية العربية ، ومع حضرة الأديب الألمعى ، الأستاذ عبد العزيز الأسلامبولى ، صاحب مجلة « المعرفة » فكان شجون الحديث ، موصلا إلى دير الزور ، وهنا تناول الكلام العلامة البحاثة ، والمؤرخ الكبير ، سعادة أحمد زكى باشا ، وكلفنى بأن أذكر شيئا عن هذه البلاد التى يتكلم عنها الأفرنج أكثر من العرب . وأبناؤها يعقونها بعدم التعريف بها وبعدم تدوين شئونها وحوادثها التاريخية ، وأمر بأحضار كتاب إفرنسى طبع سنة ١٨٩٥ إفرنجية تكلم عن متصرفية دير الزور ، بصورة فيها كثير من الصواب ولكن غالب أبحاثه يظهر لى أنها منقولة ، عن تقارير الحكومة ، التى لم تكن حينذاك تنشر الواقع ، عن بلاد عربية محضة ، ولذلك يحصل فيها بعض اختلاف فى الحقيقة ، ولاسيما أن الكاتب غريب عن البلاد

على أنه يشكر على اهتمامه وتدوينه أحوال بلاد عربية أهملها العرب أنفسهم غير أن هذا كان داعيا لى أن أحرر على صفحات (المعرفة القيمة) لأبناء وادى النيل بعض معلوماتى عن وادى الفرات لما بينهما من العلاقة فى الدين واللغة ، وكثير من العادات مع تشابه فى تربة الأرض والخصوبة ، وعذوبة المياه وكثرتها

متصرفية دير الزور

بلاد كثيرة ، وقطر واسع ، وأراضى خصبة . أنهارها عديدة ، ماؤها عذب وسماؤها صافية ، وهواؤها لطيف ، وأراضيها منبتة . تقع بين بغداد والموصل ، وديار بكر « آمد » وحلب ودمشق ونجد ، ويخترقها نهر الفرات ، ولذا أطلق عليها وادى الفرات أيضا ، وقد كتبت فيها قديما التواريخ العديدة ، فأن الحافظ أبا عروبة الحسين بن محمد بن أبى معشر مورود الحرانى من رجال القرن الثالث ألف تاريخا فى الجزيرة ، وتاريخا آخر فى الرقة خاصة ، ولتلميذه الحافظ أبى الحسن على بن الحسن بن علان الحرانى تاريخ فى الجزيرة ، وفى حران ، ولأبى على محمد ابن سعيد بن عبد الرحمن القشيرى فى تاريخ الرقة ، وللفافقى سعيد بن سليمان تاريخ فى البيرة — المشهورة الآن فى بيره جك — ولحماد بن هبة الله بن حماد ابن الفضل الحرانى تاريخ فى حران كمله أبو المحاسن بن سلامة الحرانى وغير ذلك من الكتب الكثيرة كما فى الأعلان بالتوبيخ للحافظ السخاوى وفى كشف الظنون وغيرهما . بل إن من درس كتب التراجم يجد أن الجزيرة ووادى الفرات كانا قبلة لطلاب العلم ، ولاسيما علم السنة ، فقد امتاز أهلها به حتى أن معظم مشايخ الأئمة والحفاظ ، وأصحاب الصحاح والسنن من تلك البلاد . ومثل ذلك علم التاريخ فأنهم أول من كتب فى تاريخ الأقطار والبلدان . ثم تبعهم الناس . فجمع الحافظ الخطيب البغدادى تاريخ بغداد ، وبعده الحافظ بن عساكر فى تاريخ دمشق ، وألف غيرهما على هذا النمط من علماء المدن الأخرى .

هذه المتصرفية اليوم قد كان لها قبل الأسلام وبعده من العظمة ما زال بعض آثارها الموجودة شاهدة على أنها بلغت من المجد والسؤدد مقاما عظيما غير أن ما أصابها بعد وقعة هلاكو ثم تيمور لنك صيرها أشبه بالبادية رغما عن خصوبتها وما يتخللها من نهر الفرات العظيم ونهر الخابور وفروعه ونهر البليخ وغيرها من الأنهار الصغيرة والعيون الكثيرة . ومع هذا فأنها مازال أمرها مجهولا لايدرى عنها أحد شيئا إلا النزر التافه مما نشر بعد استيلاء الدولة

العثمانية عليها سنة ١٢٨٠ هجرية . وقد كنت جمعت لها تاريخا حافلا شاء الله أن يضيع باعتقالى و إخراجى من البلاد

تسمية دير الزور

وهى كما قدمنا تشمل الجزيرة — أو بين النهرين — الفرات والدجلة — ووادى الفرات وجهته الجنوبية سميت باسم عاصمة البلاد «دير الزور» وهى واقعة على ربوة فى وسط الفرات لأنه عند درجة ٣٩ طولا . و ٣٥و٥ عرضا يؤلف الفرات جزيرتين : الشمالية ، وتسمى «الحويقة» ، والجنوبية هى دير الزور الأصلية ، ولكن هذه قد انقطع النهر عنها ، وأصبح الآن جادة تدعى «شارع النهر» تقع فى وسط المدينة

وأما الحويقة فقد كانت بساتين المدينة ، ولا يوصل إليها إلا بجسر كان مصنوعا من الخشب ، فلما أخذته الفرات عند فيضانها العظيم سنة ١٣٠٥ بنى بالكلس والحصى ، ولا زال على حاله ، وقد أصبحت محلا للسكنى ، وجزءا من مدينة دير الزور يشتمل على القصور والدور الكثيرة

وأما طرق الايصال من الحويقة إلى الجزيرة الكبرى فقد كان بواسطة السفينة إلى سنة ١٣٢٩ هجرية فبنت الحكومة جسرا أطرافه دعامات من حجر الكلس ، ووسطه سلسلة سفائن ، مازال إلى سنة ١٣٤٦ هجرية . فهدمه الافرنسيون لأجل حمله من جديد على يد شركة إفرنسية

وتسميتها دير الزور مركبة من كلمتى : دير و زور . أما دير فأقدم من أشار إليه أبو بكر الخلال شيخ مذهب الامام أحمد بن حنبل المتوفى سنة ٣١١ هجرية فأنه قال فى رسالته «الحث على التجارة والصناعة والانكار على من يدعى التوكل فى ترك العمل» : إن الامام أحمد أمر عبد الملك الميمونى بالاقامة فى ضيعته التى تبعد عن الرقة أياما وعن رأس العين مثلها ، وفيها دير معتزل وبقربه مدينة ، وتعريفه هذا ينطبق على دير الزور ، وأما الزور فأصله زورة — بفتح الزاى — بمعنى الموضع المخصوص بالازورار لكثرة تعاريج الفرات ، وهى المسماة بزورة

ابن أبى أوفى كما قاله ياقوت الحموى فى معجم البلدان وأنها تقع بين الشام والكوفة والزورة فى الجزيرة كالزوراء فى « بغداد » فى سواد العراق ، وأما الآن فأنها ينطق بها فى حركة ممالة بين الفتحة والضمة . فيقال « زور » وهو فى عرف العامة يطلق على الغابة الملتفة الكثيرة الأشجار كزور شمّر ، وزبور البوحمد ، وزور الغانم ، وغير ذلك ، و كثير من الناس يظن أنها تركية لأن الزور فى اللغة التركية بمعنى الصعب ، ولكن هذا الاسم يطلق عليها قبل أن يحكمها الأتراك بمئات السنين

وقد كان فيها كثير من قبائل لا زالت معروفة . قد عرفت بأنشاد الشعر وحفظه وإيرائه لأبنائهم ، ولذلك يطلق بعض الناس عليها دير الشعار « جمع شاعر »

ومن نظر إلى بنايات دير الزور الموجودة يظن أنها لا تزيد على خمسة قرون ولعلها بنيت على أنقاض مدينة قبلها ، و يستدل على ذلك أن الحكومة العثمانية قبل انسحابها من تلك البلاد بسنة واحدة أى سنة ١٣٣٦ هـ أرادت عمل ساعة كبيرة فى وسط المدينة القديمة وعلى عمق خمسة أذرع وجدوا تنوارا وبنايات وآثارا تدل على أنها كانت مسكونة

ولكن رغما عن أن هذه المدينة كانت عاصمة البلاد ، وبها سميت المتصرفية فأنها لم تشتهر مثل بعض مدنها الصغيرة ، ومواقعها الأخرى كالرقة ورحبة مالك ابن طوق وقرقيسية ورأس العين وبالس وضعين وغير ذلك

وسأشير إلى بعض الوقائع تاركا تعليلها فى مثل هذه العجالة لحضرة القارىء فأذا ما قارنها بغيرها من الأقطار ، تظهر له سلامة فطرة القاطنين بها ودماثة أخلاقهم ، وجودة تفكيرهم وحسن طباعهم . وسنقدم فى (الأجزاء) الآتية ذكرى الدول التى تعاقبت فى الحكم عليها بصورة مجملة موجزة ؟ محمد سعيد العرفى

(المعرفة) تشكر حضرة الأستاذ الفاضل العلامة العراقى المشهور الشيخ محمد سعيد العرفى — على تفضله بهذا البحث القيم ونعتذر لفضيلته عن تأخرنا فى نشره ، فقد كنا نبحث عن بعض الصور (الفوتوغرافية) التى توضح لنا شكل المتصرفية ولكنها لم تصلنا حتى الآن ؟